السَّد

قصة قصيرة

من مجموعة "الخيل وفضاءات البنفسج"

السَّد

مدينةٌ صغيرةٌ تضربها الرياح من جهاتٍ كثيرةٍ لأنها بلا وزن. في أحد الأيام مرّ شابٌ من أبنائها بأطرافها الجنوبية فإذا به يرى الماء من فجوةٍ بين المرتفعات يرتفع ويكاد يفيض فيصب من خلالها على المدينة ويغرقها. لن يدعه يفعل هذه المرة. تفحّص الفجوة بنظره فوجدها بحجم ظهره تقريباً، لا تصغره إلا بما يكفي لسدّها سدّاً مُحكماً. فجلس أمامها وقد سدها ظهره تماماً.

وهنت الشمس وأخذت تتسارع إلى المغيب فلم يغادر مكانه. خشي أن يتركه فيهاجم الماء مدينته الصغيرة ويغرقها. إنه يشعر به يرتفع شيئاً فشيئاً لأن الأرض تبرد وتزداد برودةً باطراد. ثم غابت الشمس تاركةً بقايا ضوئها الحائر في الكون. إنه وقتُ الرحيل، فلن يزداد الكون إلا ظلاماً حتى ظهور الشمس التالية. ولكنه لا يريد أن يترك المكان. إنه السدّ الذي يحمي المدينة الليلة، فالماء لامناص مرتفع ومنسكب في المدينة إذا ما ترك مكانه.

ارتفع الماء فلمس جسم الرجل فضاق به واقشعرّ من برده، ولكنه ثبت في مكانه. الشعور بالبلل بغيضٌ جداً وبه خاصّيةٌ تثير الغيظ. يحاول تجاهل الشعور بالبلل وعندما يعجز يؤقلم نفسه عليه: إنه يجلس في النهر الجميل في إحدى عصاري الصيف كما كان يحب أن يفعل في طفولته. إنه جالسٌ هناك يضرب بكفين خياليتين سطح الماء الداكن ويستمتع بقطرات الماء المتقافزة عالياً بفعل ضرباته، كما أنه يستمتع بالنسمات العليلة. بيد أن النسمات العليلة تجعل الماء أكثر برودة. لا بأس، سيحاول التأقلم على البرودة: إنّه الشتاء الجميل. إنّها أنسام الشتاء القارسة التي يتحدّاها عندما كان صغيراً بخلع ملابسه والوقوف أمامها. إنه يتحداها الآن. وما البرد الساري في جسده إلا جولة من جولات المعركة التي سيفوز فيها على أنسام الشتاء كما كان يفعل. يبتسم لكل لسعة بردٍ جديدة.

ينتصف الليل الغائب القمر وتعوي الذئاب من بعيد. إنه هنا لا ينتوي المغادرة مهما كان السبب. ولكنَّ الماء في جعبته الكثير. هاهو يرتفع قليلاً و يصل إلى منتصف الظهر. يرتعش

الرجل برداً وتصطك أسنانه ولكنه ما يزال ثابتاً. لن يهرب الآن. ويضرب الماء ظهر الرجل ببرده وقسوته. إنه يُلملم نفسه من كل حدبٍ وصوبٍ ويضرب الرجل بكل قوته. سيؤقلم نفسه على هذا: إنّه يلهو على لوحٍ خشبيٍّ فوق أمواج البحر العاتية. إنّه يتحرك معها في هذا البحر الهائج ويتوقع ضرباتها من كل اتجاه. ضرباتها ليست إلا جزءاً من اللعبة والمغامرة.

عيناه تدمعان.. إنه يلهو.. تسيل أدمعه بازدياد ألمه.. اللعبة تزداد إثارةً وضراوة ..يكاد يُهزم، ولكنه لن يتزحزح. يتألم.. يتألم كثيراً ويكاد يبكي بعويل. تهزمه الأمواج الباردة وتحطّم لوحه الخشبيّ.. يصرخ رغم أنفه وتختفي اللعبة ولا يبقى إلا الألم، ولكنه يزداد ثباتاً. وكلما أوشك الماء على اقتلاعه من مكانه عاد فثبّت جسمه واستجمع قواه يواجه بها المياه التي تتوعد مدينته. ونذر نفسه وهو يتوجّع ألماً أن يكون هذا موقعه إلى نهاية عمره.

* * *

ومرت الأيام والسنون وكلما اتسعت الفتحة التي يريد الماء أن ينفذ منها عَرُض ظهره ليسدّها سداً محكماً، وكلما علا الماء استطال ظهره ليحجبه. وكلما ازداد اندفاع الماء قوةً ازدادت أحجاره صلابةً وقدرةً على الصمود.. نعم أحجاره. إنه سدٌ منيعٌ مبنيٌّ بالأحجار الصلدة التي تتحدر المياهُ عنها ولا تجرؤ على تجاوزها.

ويتزوج الرجل وينجب بنتاً وولدين، ويظل حاميَ المدينة من كلّ سوءٍ حتى خلت من المجرمين واللصوص. وأصبحت الحكومة تفكّر مائة مرةٍ قبل أن تقرر شيئاً ليس في صالح هذه المدينة الصغيرة المنسيّة. وأصبح كلّ المحتالين خارج المدينة وداخلها يهابونه ويخشون سطوته. ويتراجعون دائماً قبل أن يقتلعوا نبتةً من أرض مدينته. إنه السدّ الذي يحجز ما بين المدينة وما بين الأنهار الغاضبة.

السد يقف شامخاً متطاولاً بأحجاره القويّة الصامدة دائماً أمام المياه. وتهنأ المدينة بحياةٍ لا يهددها فيها شيء. ولكنّ الزمن كدأبه دائماً يُغرّد مع الأشياء حيناً، ثم يُغرّد ضدها إلى النهاية. لذلك يشيخ السد وتتشقق أحجاره، ولكنه يظل يحجب المياه جيداً. وفجأة يُدرك السد قانون الزمن الصارم ويدرك أنه يضعف، فيجوب المدينة بحثاً عن البديل. بحث عن كبراء المدينة فلم يجبه أحد. الناس لا يستطيعون أن يحملوا هذه المسؤولية. إنها شاقّةٌ ولا يقوى عليها إلا السدّ بأحجاره الصلدة.

يجلس في نهاية المطاف إلى جاره الكاتب ويحدّثه طويلاً عن المدينة وكيف حمايتها. يريده أن يحجب المياه والرياح عن المدينة.

أنا؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ألا ترى كم أنا هزيل؟

ولكنك تقرأ وتكتب. عقلك ليس هزيلاً. ولا تُصدّ السيول إلا بالعقل والإرادة. صدّقني بعقلك ستحمي المدينة.

يهز الكاتبُ رأسه مبتسماً. إنه لا يستطيع. ينظر إليه الشيخ طويلاً. ثم يترك منزله. ويمرّ بمن يراهم أهلاً للحماية واحداً واحداً ولكنهم يرفضون. لا يستطيع أيٌّ منهم أن يضطلع بهذه المَهّمة. لم يبق إلا أبناؤه. لعلّ أحدهم يكمل مهمته.

يذهب إلى كبيرهم. ولكن كبيرهم يعيش مُذ وُلد في اسطوانةٍ عاليةٍ لا يسمع فيها إلا صوته. وكلما كلّمه أحدٌ تشتت صوته وضاع، فلا تصل إليه إلا كلماته المرتدّة إليه من محيط الاسطوانة الداخليّ. لذلك فهو لا يسمع إلا نفسه ولا يفهم إلا كلامه هو، ولا يفعل إلا ما يناسبه هو . لذلك يئس منه الأب وتركه إلى أخيه. أخوه يعيش عالياً في الهواء. لقد رفعه الناس من أجل أبيه. وهو لا يريد أن يغادر مكانه خوفاً من السقوط منه. إنه يعلم أنه معلقٌ في الهواء. لا أساس له يحميه من السقوط. لا فائدة. لن يترك منصبه العالي من أجل أن يحمي المدينة.

يترك الرجل الولدين ويتجه إلى الابنة. إنها حبيبته التي كانت تجلس متكئةً على ساقه وتسمع قصص أفاعيل المياه التي تهدّد المدينة، وكيف كان يصدّها، ولابد أنها تعلمت منه الكثير. ولكنها تهزّ رأسها معتذرة. إنها الآن راقدةٌ على البيض. لا تستطيع ترك بيضها من أجل المدينة.

يترك السد أبناءه ويعود إلى بيته حزيناً. لقد اقترب موته والحمقى كلهم غافلون. يظنّون أنه سيعيش الدهر ليحميهم. أو بالأحرى يظنون أن المدينة في أمانٍ تامٍ وقد انتهى ما يهددها. لا يعلمون أن المياه ما تزال تتحيّن الفرص لتضربَ السد بقسوةٍ وتُشقّق أحجاره. ولكن ماذا يفعل. لا يستطيع إلا أن يواصل استقبال ضربات المياه الباردةِ فإذا حانت ساعته فسيجتمع أهل المدينة كلهم ويحاولون حماية أنفسهم. لقد رأوا عبر السنين كيف كان ينقذهم من كل شيءٍ وسيقلّدونه حتماً.

* * *

غرباء يبحثون عن السد، ويُقادون إلى بيت الرجل المريض. من بعيدٍ يضرب أهل المدينة كفّاً بكفّ. لقد انتهى أمرهم. ما إن يرى الغرباء كيف شاخ السد حتى يُنفّذوا كلَّ ما جاءوا من أجله.

الرجل المريض لا يقوى على الجلوس ليتحدّث مع وفد الحكومة، لذلك يجلس الرجال الثلاثة حوله وهو على سريره. ينظرون إليه فيهابونه ويتلعثمون ثم يصمتون، ويظلون صامتين. لقد كانت الحكومة تدرس المشروع منذ سنين وترجئ الأمر لأنها لا تستطيع مواجهة السد، حتى أعدت هؤلاء بما يتحلون به من منطقٍ وقدرةٍ على الإقناع، ولكن هاهم صامتون لا يستطيعون الكلام.
ماذا تريد منا الحكومة؟
يتشجع أحدهم عندما يتحدّث الرجل المريض في الموضوع فيصلح من صوته ويقول: تريد لكم أن تختاروا أجمل بقعةٍ في البلاد لتقيموا عليها مدينةً أخرى لكم.
وهذه؟
يتشجع ثانٍ: هذه ستحوّلها الحكومة إلى مزارع وبساتين تزيد من دخل البلاد ليعمّ الخير الجميع.
ولكنها مدينتنا.. وكثيرٌ من رجالنا مزارعون.
مزارعون ولكن وسائلهم غير مجدية.. وجُلَّ مُزارعيكم لا يعملون إلا بالقدر الذي يطعمهم، ولا يصدّرون شيئاً خارج البلاد.

إنهم قانعون.
ولكنهم يحرمون البلادَ من فرصٍ لا تُعوّض لزيادةِ مدخولها. إن المدينة تقع في أجمل موقع في البلاد. وهناك النهر الذي تحميها المرتفعات من سطوته والفجوة التي تُدخل من الماء ما ينفع الزرع.
إننا نستحقّ هذه المدينة الجميلة. إننا نعْمُرها منذ سنين طويلة.
صحيح. ولكن الدولة ستنتفع كثيراً من هذه المنطقة بتحويلها إلى مزارع تُصدّر إنتاجها إلى خارج البلاد. تعلم أنه لن يستطيع الأفراد - مهما حاولوا- تطوير مزارعهم وجعلها قادرة على زيادة دخل البلاد بإنتاج ما يمكن تصديره إلى الخارج. كما أن الحكومة ستمنحكم مدينةً أخرى في المكان الذي تختارونه.
لا!
خرجت اللاء المريضة بصوتٍ ضعيفٍ إلا أنها كانت "لا" بكل ما في اللاء من رفضٍ وصرامة. وخرج الوفد يُعلنون فشلهم في مهمّتهم. لا أحد يستطيع أن يتجاوز لاء السد.

اكتشف الأهالي أن سطوة الرجل وهيبته ما تزال كما كانت أيام عنفوانه فاطمأنوا على المدينة. السد يقف شامخاً بأحجاره الهرمة أمام المياه مهما كانت سطوتها. ولكن الأحجار تتشقق... تتفتت. السد ينهار بفعل تقادم العهد لا سطوة السيول. فيجتمع الكاتب بفئةٍ من الذين علموا بموت الرجل ثم يسير بهم إلى أبناء الرجل يطلبون دفنه سراً لكي يعيشوا تحت حماية السد أطول مدةٍ ممكنة.

الرجل المعلّق في الهواء يقول افعلوا ما تريدون، والابنة التي ترقد على البيض تمسح دموعها، وتعدّل من وضع بيضها وتقول افعلوا ما تريدون. أمّا الرجل الذي يعيش في الاسطوانة فلا تصل إليه الكلمات. "أبي لابد أن تكون له جنازةٌ تليق به." وترتد إليه كلماته فيقتنع أنّ أباه لا بدّ أن تكون له جنازةٌ تليق به. ولكننا مستضعفون. لن نستطيع حماية أنفسنا. وتتبعثر الكلمات. "جنازة أبي ستكون غداً." وترتد إليه كلماته فيقتنع أن جنازة أبيه يجب أن تكون في الغد.

وفي اليوم التالي يقف الرجل الذي يعيش في اسطوانةٍ والرجل المعلق في الهواء والمرأة الراقدة على البيض مع أهل المدينة كلها ليشيّعوا جنازة السد. ثم يعودون إلى حيث كانوا ناسين أمر الرياح والمياه المتصاعدة في كل حين.
* * *
وما هي إلا بضعة أشهرٍ حتى تهب الرياح كما كانت تفعل قبل أيام السد، وتتطاول المياه فيخاف الأهالي إذ تذّكروا أنَّ ليس لهم وزن، ويتراكضون إلى مقرِّ كبرائهم ليناقشوا الأمر. ولكنْ لا يوجد في المدينة من هو قادرٌ على حمايتها. كلهم خِفافٌ تؤرجحهم الريح يميناً وشمالاً.

يتشاور الأهالي ويتحاورون ويتشاجرون ثم يستقرون على فكرةٍ واحدة: أن يذهبوا إلى أبناء السد. لابدّ أن أحدهم قد ورث عن أبيه القدرة على الحماية. لم تخرج هذه القدرة في حياة

السد لأنه كان موجوداً للحماية، ولكنها حتماً ستخرج الآن بعد وفاة والدهم وإدراكهم لخطورة الوضع.

يتّجه الجمع إلى الذي يعيش في الاسطوانة: إن المدينة في خطر! تتبعثر الكلمات. "إنني بحاجةٍ إلى بناء بيتٍ جديد." ترتدّ إليه كلماته فيسمعها ويقتنع أنه بحاجةٍ إلى بيتٍ جديد. ولكنَّ المدينة في خطر. الخطر يهددنا جميعاً. تتبعثر الكلمات قبل أن تدخل الاسطوانة. "يجب أن أبيع بيتي وأقترض فوقه مبلغاً من المال من أجل بناء البيت الجديد." يرتدّ إليه صوته ويقتنع تماماً أنه يجب أن يبيع بيته ويقترض فوقه مبلغاً من المال من أجل بناء البيت الجديد. يتركه الجمع وينطلقون إلى أخيه المعلّق عالياً في الهواء.

يرفعون رؤوسهم ويكوّرون أكفّهم أمام أفواههم ويهتفون به: المدينة في خطر! ولكنه في الهواء. لا يستطيع أن يتحرّك كثيراً وإلا سقط. يعلم أنه معلّقٌ في الهواء بخيطٍ من هواء. إنه ليس في برجٍ مبنيٍّ من الأحجار ليستطيع تركه والعودة إليه متى شاء. لو ترك مهام منصبه الهوائي لسقط بكل سهولة، ولن يعيده شيءٌ بعد ذلك، إنما قُذف هناك بالصدفة المحضة، ولو ترك موقعه فلن ترميه صدفةٌ أخرى مهما فعل. "ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً." يقولها بحسرةٍ فيتركونه. لا فائدة من مناقشته. يتركه الجمع ويتوجّهون إلى الابنة: إن المدينة في خطر! ولكنّ الابنة ترقد على البيض. حولها أفراخٌ صغيرة وتحتها بيضٌ جديدٌ لا تستطيع تركه بتاتاً. ينكّس الجميع رؤوسهم يأساً ويعودون إلى منازلهم. لعلّ المدينة ليست في خطرٍ رغم كل شيء.

ولكنها في خطر. العواصف تزمجر والمياه تفور وتتطاول. إنها تصل إلى حافة الفتحة ثم تنجرف سيولاً باردةً تحتلّ طرقات المدينة وتهاجم منازلها. ويهرب الناس خارجها حاملين ما تمكنوا من حمله. ويسقط الابن المعلق في الهواء فيجري خارج المدينة، وتحمل الابنة بيضها وتجري يتبعها فراخها إلى خارج المدينة. ويجري كبير الاخوة باسطوانته خلف الناس.

ويبقى الكاتب أمام منضدته يكتب كتاب استعطافٍ إلى الحكومة علّها تُنقذ المدينة. ولكن الريح تؤرجحه ثم تدفعه بقوةٍ نحو الباب، فيختطف قلمه وبضعة أوراقٍ يضعها في جيبه قبل أن تقذف به الرياح خارج المدينة. وإذ يستقر به الحال في مدينةٍ أخرى بعيدةٍ يجلس ويكمل خطابه للحكومة ثم يتجه إلى كبرى المدن كي يسلمه إليها.

تمر الأيام والشهور وينقضي العام ويشرف العام التالي على الانتهاء فيكتب كتاباً آخر للحكومة يذكّرها فيه بكتابه الأول، وما إن ينتهي منه حتى يسمع طرقاً على الباب فيفتحه فيُفاجأ. من هذا؟ من؟ إنه ابن السدّ الأصغر الذي كان معلّقاً في الهواء. أنت هنا؟ أين أخويك؟ أختي في المدينة الكبرى. وأخي في مدينةٍ بجوارها، أما أنا فهنا. ولم أعلم أنك أيضاً هنا إلا البارحة.
يمسح الكاتب دمعةً من عينيه.
هل تعلم ماذا كتبت تواً؟ كتبت خطاباً للحكومة لتعيد إلينا مدينتنا.
ضحك الذي كان معلّقاً في الهواء وقال: أيّ مدينة؟ اذهب إليها فإن رأيتها فأرسل الكتاب.

ينطلق الكاتب وكتابه في يده إلى المدينة. أطرافُها ليست أطراف مدينة. منازلها المتطرّفة كلها هدّمت. إنها الآن مزارع مسوّرة. يحاول الدخول فيعترضه الحرّاس، ولكنهم يُشفقون عليه في النهاية ويدخلونه فقط ليرى البقعة التي فيها منزله. كل المنازل التي كانت مبنيةً بعد المنازل المتطرفة أزيلت ومكانها بساتين ومزارع. الخضرة تحيط بالمكان ولا يرى شيئاً غيرها. لقد كان طوال عمره يتغنّى بالخضرة، أما الآن فهو يكرهها. لقد سطت على المدينة. لقد اغتالت المنازل. عاش حياته يشبّه القلوب القاسية بالحجارة وهاهو يذوب شفقةً على الحجارة التي تداعت أمام الخضرة. الخضرة فقط لا تصنع مدينة. قد تصنع بستاناً وقد تصنع غابة، ولكنها لا تصنع مدينة. البيوت الحجرية الدافئة هي التي تصنع المدن.

يمشي ويمشي حتى يعود لا يعلم أين هو. المكان كله بساتين. لا منزل يستدل به على موقع منزله ولا سوق ولا مسجد. فيرفع بصره إلى موقع الشمس ثم يسير شمالها حتى يحدّد موقع بيته. ولكن البساتين الرضيعة تحتلّ كل المساحات ولا أثر لبيته. ليس له بيت. لقد مُحيت المدينة تماماً. ينفلت كتاب الحكومة من بين أصابعه المذهولة، فلا يأبه له. الكتاب لا يحمي. كان الأمر بحاجةٍ إلى سدٍّ يقف فقط ويمنع. ولكن سدّهم مات، والسد لا يلد السد دائماً.

Delalkhalifa.com